تفسير التاريخ : مطلب إنسانى تخلف فيه المسلمون

منذ خمسة قرون، والبحث عن المنهج التاريخى الأصلح لكتابة التاريخ الإنسانى، وتفسير التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا.

ويعتبر العالم الإسلامى - للأسف الشديد - نشازًا فى هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخى لا يهتم - إلا فى القليل - بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ.

والنظر إلى قائمة الأطروحات العلمية التى قدمت فى جامعات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة - بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين - يؤكد هذه الحقيقة !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق، بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى ؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه ؛ ففضلاً على عبثية هذه المقولة فى ظل الأساليب الحضارية المعاصرة، فإنها أيضًا مقولة لا تخدمنا، حتى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لا بد أن نبحث فى بنائنا الداخلى، وفى تطوير كياننا، وفى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا، وفى فقه سنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا فى هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إن تشريحًا قويًا يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا فى التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعتراف بالحقيقة كما هى، وفى تقويم

هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التى نؤمن بأنها (المطلق) و (المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية.

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنًا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، إن المنهج العلمى لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً)، وقبولها دراية (عقلا).

وقد أصبح فقه البيئة الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة والحكم عليها... ومهما يكن لتفسير التاريخ من كيان مستقل فإن أجزاء كثيرة منه - على الأقل فى معطياته الأولى - ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها...

إن هذه مسلمة قرآنية أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً !!

توظيف المنهج التاريخى وفلسفة التاريخ

كان أول عمل للمؤرخين المسيحيين هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعلاقته، وهم يعنون به (التاريخ اليهودى والمسيحى معًا)، وبذلك غدا التطور التاريخى لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيس فى تاريخ الماضى بأسره، بينما وصفت الأحداث التاريخية التى دونتها سجلات الأمم الوثنية فى صورة عرضية ثانوية[1]، ولما جاءت الحركة الإنسانية وظهر تأثيرها العام على الكتابة التاريخية بدأ الاهتمام يتجدد بالأدب الوثنى، والتاريخ الوثنى، هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل فى تضاؤل عنصر المعجزات فى عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً على تضاؤل (الآثار العاطفية) (للملحمة المسيحية)، ومع ذلك لا ينبغى أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين، أو المتشككين فى الديانة المسيحية وإنما الغالب أنهم تجاهلوا - ولم ينكروا - مزاعم اللاهوت والجدل الدينى، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى تأثير النزعة الكاثوليكية.

(١) هارى المربارنز، ترجمة محمد عبد الرحمن برج: تاريخ الكتابة التاريخية ١/ ٧٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤م.

وهكذا قدر للتاريخ الوثنى أن يستعيد ـ إلى حد ما ـ مكانته البارزة التى فقدها على أيدى الكُتَّاب المسيحيين بصفة عامة [١] .

وكان ظهور «مارتن لوثر» عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ، بل إن حركة الإصلاح الدينى بقيادة (كالفن) و (لوثر) أعطت الجهد البشرى فى تفسير التاريخ تقديراً أقل مما أعطته الكنيسة فى سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هى صاحبة المقام الأكبر والأول فى مقام البحث التاريخى، بل إن التاريخ العالمى صُوِّرَ مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان [٢] .

«وغنى عن القول أن إحياء النزعة الدينية فى مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التى لمسناها فى كتابات بعض المؤرخين أمثال «جويكوردينى»؛ بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الدنيوى فى كتابة التاريخ ؛ وهو الاتجاه الذى كانت تمثله المدرسة الفلورنسية. كذلك ترتب على إحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضى، وهو الأمر الذى أضنى «بولبيوس» نفسه من أجله، ذلك لأن التاريخ فى تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية معرفية تأويلية متعصبة بدرجة لا تقل عنفًا عما كان عليه أيام القديس «أوغسطين» وتلاميذه : وبعبارة أخرى فإن النظرة إلى الماضى فى ذلك العصر جعلت (ترسانة) شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها فى تشويه صورة خصومهم. كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التى أحياها خيرة كتاب المدرسة الإنسانية ؛ وذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد فى الماضى ما يؤيد وجهة نظره، بينما يبذل جهده فى أن يظهر معارضيه فى أقبح صورة» [٣] .

---

(١) المرجع السابق، ص : ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق، ص : ١٧٥، ١٧٦ .
(٣) المرجع السابق، ص : ١٧٦ .

وخلال القرنين ـ التاسع عشر ومطلع العشرين ـ لمعت أسماء من أمثال (فردريك شبلنج ت ١٨٤٥م) الذى كان متأثراً إلى حد كبير بآراء فيخته (الذى كان مؤمنًا إيمانًا شديدًا بتفوق الجنس الألمانى)، ثم (فردريك شليجل ت ١٨٢٩م)، مع تركيز على العامل الدينى الكاثوليكى، ثم ـ فى نهاية هذه المرحلة ـ ظهر (ويلهلم هيجل) الذى كانت الدوافع القومية واضحة وراء فلسفته بطريقة تتضح أكثر من فيخته، فقد صرح (هيجل) فى فلسفته بأن الألمان قد عهد الله إليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية إلى الجنس البشرى[1].

وقد ظهرت إلى جانب ذلك مدارس فرنسية وإيطالية وإنجليزية وبلجيكية وأمريكية فى تفسير التاريخ (فيكتور كوزين ت ١٣٦٧م فرنسى، ثيودور جوفروى ت ١٨٤٢م فرنسى، تيرجو الذى سبق كونت فى تقسيمه الشهير للتقدم على ثلاث مراحل : اللاهوتية، والميتافيزيقية، والعلمية)، (وفيليب بوشير ت ١٨٦٦م فرنسى، ثم أوجست كونت ت ١٨٥٧م، فرانسوا لورنت ١٨٨٧م بلجيكى، قيصر بالبو ت ١٨٥٣م إيطالى، فيرارى ت ١٨٧٦م إيطالى، وهربرت سبنسر ت ١٩٠٣م إنجليزى، وهنرى باكل ت ١٨٦٢م ؛ صاحب كتاب تاريخ الحضارة فى إنجلترا، إنجليزى، وروبرت فيلنت ١٩١٠م إنجليزى، وهوايت، وهاريس، ورويس، وفيزيك الأمريكان، الذين كانوا عالة على المدارس الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية).

أساسيات الرؤية الإسلامية للتاريخ

وفى ضوء هذا البحث الإنسانى الدؤوب عن تفسير إنسانى موضوعى للتاريخ يتبدى لنا أن من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح ـ وليس كل المفاتيح ـ لحركة التاريخ والكون.

وفى الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا ـ إنصافًا لرسالتهم وحضارتهم ـ بجهودهم فى مجال فلسفة كونية وتاريخية أصيلة ؛ تقوم على ركائز التصور الإسلامى الأساسى... إنه ليس حقهم فحسب، بل إنه واجبهم كذلك.

(١) المرجع السابق، ص : ٢٧٠.

لقد أدلى النصارى بما لديهم . . . وهم ـ واليهود ـ يشكلون رؤية دينية للتاريخ ينقصها المشروع الحضارى والصلة الوثيقة بالواقع . . . وقد أفرز هذا التصور مادية مغرقة كانت رد فعل للاستغراق اللاهوتى، وكلا التفسيرين أغفل عناصر أساسية، ولم يستطع تصور النسيج الكامل والمحكم والمتوازن والمتشابك للعملية الحضارية . . . وكلاهما عمَّق الرؤية فى جانب على حساب الجوانب الأخرى، وبالتالى فالتفسيران المثالى واللاهوتى عاجزان !!

* والنظرة الإسلامية للتاريخ تتميز عن غيرها بأنها تؤمن بثبات الفطرة الإنسانية، وثبات السنن الكونية التى تتحرك الأحداث فى داخلها وبمقتضاها . . .

فالرؤية الإسلامية تؤمن بأن الجانب المعرفى يتطور فى الإنسان ؛ ولكن مع بقاء عناصر ثابتة يتلقاها الإنسان عن الوحى ؛ ولا يستطيع إدراكها بعقله وحده . . .

* * *

* وقراءة التاريخ ـ من جانب آخر ـ لا تقتصر على حياة الحكام، وأخبار الوقائع والحروب ؛ بل لا بد أن تصل إلى نسيج الحياة من خلال الدراسة الجادة للحياة الاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية . . .

* والتصور الإسلامى يرى أن الجانب المعرفى، والفكرى يتطور فى الإنسان مع حاجته إلى ضوابط وعناصر تكمله ؛ لأن هناك معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها من الوحى لا من العقل الذى هو ـ بطبيعة محدودية طاقته ـ عاجز عن إدراك تفصيلاتها . . . وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها . . .

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعمل العقل فى مساحة واسعة : كونية واجتماعية ؛ يستطيع من خلالها تسخير الكون ؛ ومجالات العلوم، والفنون، والآداب، وفقه النفس الإنسانية، والطاقات الإنسانية المختلفة، واستكشاف عظمة الله من خلال تدبر آلائه وآياته فى الكون والنفس، ومن ثم استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية .

ومن الجدير بالذكر ـ وقبل الوصول إلى مرحلة استخلاص القوانين ـ ضرورة قراءة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية قراءة فاحصة ؛ بل إن تركيز تفسير الحركة التاريخية يجب أن يتجه إلى قراءة الجوانب السالفة الذكر، والتى لم تأخذ حقها من التاريخ، مع أنها التاريخ الأجدر بالاهتمام . . . ومع أن أبطالها وقادتها هم صانعو الحضارة الحقيقيون .

والحق ـ عند النظر الفاحص ـ أن التاريخ السياسى، والعسكرى قد يشكل عبئًا على حركة الحضارة . . . فقليل من الحكام كان صالحًا، وقليل من المعارك كانت ذات فائدة، أو كانت موجهة دفاعًا عن المثل العليا أو لحماية الحق، وأكثر المعارك كانت لخدمة أطماع توسعية، أو لخلافات شخصية بين أمزجة الحكام، كما أنها كانت تتم بأساليب همجية لا يقرها الوحى الإلهى، ولا العقل الصحيح !!

إن تاريخنا ليس فردًا فى هذا المجال . . . فمعظم تواريخ العالم ـ إن لم يكن كلها ـ يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها : أباطرة كانوا، أو قياصرة، أو كياسرة، أو ملوكًا فراعنة . . . إن معظم هؤلاء كانوا كالديدان التى تعيش على أفضل ما فى الجسم وتقتله فى آن واحد .

فكيف يصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها . . . ؟!

وإن عظمة كثير من الحضارات ـ وعلى رأسها الحضارة الإسلامية ـ أنها بقيت بالرغم من الفساد الذى يجلبه هؤلاء !! إن التنظير الإسلامى الحضارى للتاريخ ضرورة للمسلمين وللإنسانية كلها . . . وهو ـ فى الوقت نفسه ـ حق للمسلمين، وواجب عليهم . . . وعندما نتجه ـ عمليًا وبصورة جماعية ـ للبحث فى أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه، والأدب، والرجال، والطبقات ؛ باذلين معظم الجهد فى التعرف على حياتنا الحضارية التى تقوم على الفكر والثقافة والعلم ـ أولاً ـ وعلى النشاط الاجتماعى ـ ثانيًا ـ والنشاط الاقتصادى ـ ثالثًا ـ والنشاط السياسى والعسكرى ـ رابعًا ـ !!

ومن الواجب أن نصهر كل هذه الفعاليات فى بوتقة واحدة ؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة المعاشية كلها، مراعين فى الوقت نفسه النسبة المحددة لكل نشاط وأثره فى الحضارة، ومراعين ترتيب العناصر وفق أولويتها، والنسب المحددة لها.

* * *

ويتضح لنا كيف أننا ظلمنا تاريخنا الحضارى، وأعطينا الساسة والعسكريين أكثر من حقهم عندما نتأمل هذه العبارة التى كتبها أحد المفكرين وهو يتحدث عن الكنوز المنسية والمظلومة الموجودة فى تراثنا والتى أهملت بسبب طغيان الجانب السياسى والعسكرى...

يقول الكاتب :

«لو أنى بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل أسبوع عن عَلَم من أعلام المسلمين، أو أعرض عليهم قصة من قصص بطولاتهم وعبقرياتهم لما انتهيت، ولما قاربت الانتهاء... وكيف؟ وعندى فى مكتبة بيتى الصغيرة أكثر من خمسين مجلداً فى تراجم الرجال، لو أن فى كل مجلد منها مائة ترجمة لكان فى ذلك وحده خمسة آلاف ترجمة، لخمسة آلاف عَلَم من أعلام الإسلام، وما ليس عندى من كتب التراجم أضعاف ذلك.

ثم إن فى كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافًا أخرى لم تفرد فى كتب التراجم»[1].

إن صفحة من صفحات حضارتنا ـ ومثلها عشرات الصفحات ـ لم تكتب من منظور حضارى كما ينبغى أن تكتب.. إنها صفحة القضاء، والقضاة، هؤلاء الذين كانوا الحكام الاجتماعيين للشعب، وكان الحكام كثيراً ما يخضعون لهم... وعلى امتداد العصور الإسلامية، وقبل العصر الثورى المدمر اشتهر القضاة بالقوة، والعدل، والورع، وتطبيق الشريعة بلا مجاملة أو محاباة.

---

(١) الشيخ على الطنطاوى : قصص من التاريخ (المقدمة)، طبع بيروت.

كان محمد بن عمران قاضى مكة، فادعى لديه جمّال على أمير المؤمنين العباسى، أبى جعفر المنصور، فبعث إليه (مذكرة جلب) فجاء فى خف وطيلسان ما عليه من شارات الإمارة شىء، حتى وقفه بين يديه مع الجمال !!

وكان شريك قاضى الكوفة، وادعت لديه امرأة مجهولة على الأمير الخطير ابن عم الخليفة، وثانى رجل فى الدولة بعده عيسى بن موسى، فحكم عليه حكمًا غيابيًا، فامتنع الأمير من إنفاذه وتوسل إليه بكاتبه، فحبس القاضى الكاتب؛ لأنه مشى فى حاجة ظالم، فاستعان عليه بجماعة من وجوه العراقيين من إخوان القاضى، فساقهم جميعًا إلى الحبس، فغضب الأمير، وبعث من أخرجهم، عند ذلك ـ عصفت نخوة الشرع فى رأس القاضى، وأخذته عزة الإيمان فقال: «والله ما طلبنا هذا الأمر (يعنى المنصب)، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم». ثم ختم قمطره، وجمع سجلاته، واحتمل بأهله وتوجه نحو بغداد، ووقعت الرجفة بالكوفة لما علمت بخروج القاضى، حتى خاف الأمير على سلطانه، فلحق بالقاضى يناشده الله أن يرجع، فقال القاضى: «لا والله حتى يُرد أولئك إلى الحبس فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت»، فبعث الأمير أن يرجعهم إلى الحبس، والقاضى واقف ينتظر حتى جاءه الخبر بأنهم قد أرجعوا، فقال القاضى لغلامه: «خذ بلجام فرس الأمير وسقه أمامى إلى مجلس الحكم فى المسجد»، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة، فلما انتهت المحاكمة، وحكم لها عليه نهض فسلم عليه بالإمارة، وقال له: «هل تأمر بشىء؟» فضحك الأمير، وقال: «بماذا آمر؟ وأى شىء بقى؟» قال له شريك: «أيها الأمير، ذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب»، فقام الأمير، وهو يقول: من عظَّم أمر الله، أذل له عظماء خلقه !![1].

وكان القضاة إذا عقدوا مجلسًا للقضاء، لا يفضلون صاحب قضية على آخر، بناء على مركز صاحبها، ومن أخبار القاضى (عمر بن عبد الله) أنه كان إذا جلس أمر من كانت عنده خصومة أن يكتب اسمه فى رقعة، ثم يجمع هذه الرقاع

(١) على الطنطاوى: فكر ومباحث، ص: ١٠٤ـ١٠٥، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت.

ويخلطها بين يديه، ويدعو بأصحابها الأول فالأول، حسبما تخرج يده من رقاع[1].

وقد وقف بين يدى المأمون وهو فى مجلس المظالم رجل يتظلم منه نفسه؛ فترادّا الكلام ساعة فما اتفقا، قال المأمون: فمن يحكم بيننا؟، قال: الحاكم الذى أقمته لرعيتك (يحيى بن أكثم)، فدعا به المأمون فقال له: اقض بيننا. قال: فى حكم وقضية (أى فى دعوى)؟ قال: نعم. قال القاضى: لا أفعل. فعجب المأمون، وقال: لماذا؟ قال يحيى: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء، فإن كانت له دعوى فليأت مجلس الحكم (أى المحكمة). قال المأمون: قد جعلت دارى مجلسًا للقضاء. قال: إذن فإنى أبدأ بالعامة ليصح مجلس القضاء (وتكون المحاكمة علنية). قال المأمون: افعل. ففتح الباب، وقعد فى ناحية من الدار، وأذن للعامة، ونادى المحضر، وأخذت الرقاع (أوراق الدعوة والإعلان) ودُعى الخصوم على ترتيبهم حتى جاءت النوبة إلى المتظلم من المأمون، فقال له القاضى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين (المأمون)، فنادى المحضر: «عبد الله المأمون»!! فإذا المأمون قد خرج فى رداء وقميص وسراويل فى نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى، ويحيى جالس فقال للمأمون: اجلس!!. فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه، فمنعه القاضى حتى جاء بمصلى مثله، فبسط للخصم وجلس عليه[2].

ولم يكن معظم القضاة يتجه للقضاء رغبة فى كسب المال أو المركز؛ وإنما كان اتجاههم للقضاء رغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - القاضى (أحمد بن محمد بن خلف الملقب بأبى القاسم الحوفى الإشبيلى)، فقد كان يسترزق أثناء القضاء من عمل يده، وكان القاضى ابن سماك الهدانى عندما تولى القضاء يقوم بحاجته اليومية بنفسه، فكان يكسر الحطب على باب داره والناس من حوله يختصمون إليه ويسألونه[3].

---

(١) الخشنى: قضاة قرطبة، ص: ١٤٩، بيروت.

(٢) على الطنطاوى: فكر ومباحث، ٢/ ١٠٥، ١٠٦، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت.

(٣) الخشنى: قضاة قرطبة، ص: ٥٧.

ومن الوزراء يقدم لنا مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) نموذجًا للوزير العالم الزاهد فى الحكم وفى الدنيا، فقد خدم الأتابك عز الدين بن مودود وولده نور الدين أرسلان شاه فصار واحد دولته لدرجة أن نور الدين كان يقصد منزله ليستشيره عندما أقعد بسب المرض فى آخر زمانه. وقد كاد طبيب مغربى أن يصل به إلى الشفاء من مرض النقرس، وأشرف على الشفاء الكامل؛ لكنه صرف الطبيب عن إتمام العلاج، وقال لأخيه عز الدين عندما عاتبه على طرد الطبيب الذى ظهر نجاحه: إننى فى راحة من صحبة هؤلاء القوم (يعنى الأمير والحاشية) وقد سكنت روحى إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذل نفسى بالسعى إليهم، وها أنا اليوم قاعد فى منزلى فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءونى بأنفسهم لأخذ رأيى، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته ولم يبق من العمر إلا القليل فدعنى أعشْ حرًا سليمًا من الذل، وقد أخذت منه أوفر حظ.

وهكذا لزم الرجل بيته صابرًا محتسبًا يغشاه الأكابر والعلماء، وكان قد أنشأ رباطًا بقرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب) ووقف أملاكه عليه وعلى داره التى كان يسكنها بالموصل[1].

وقد عَمَّر علماؤنا الحياة بالعلم والعمل، وكانوا - مع ذلك - زاهدين فى الدنيا؛ زُهْد القادرين لا خضوع المستسلمين المنهزمين.. وقد جاء بعض من أرّخوا لهم فظلموهم وصوروهم وكأنهم صوفية متواكلون؛ يعيشون بلا عمل ويعتمدون فى حياتهم على الصدقات، مع أن الزهد بمعنى التوكل، والكسل لم يكن فى الزهاد المخلصين؛ وإنما اتسم به نفر من أدعياء التصوف من الجهلة والعوام...

كلا... فما كان صناع حضارتنا كذلك، وما فهموا الزهد إلا بمعنى الثراء والاستعلاء، وما فهموا العبادة إلا بمعناها الكونى الفسيح الذى يسخر الدنيا لراية التوحيد...

---

(١) د. محمود الطناحى: مقدمة تحقيق منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الأثير، طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣م، ص: ١٦-١٨ بتصرف.

ولقد جرت محاورة بين اثنين من كبار الصالحين وضَّحت هذا التصور الصحيح، فقد قال الفضيل بن عياض لعبد الله بن المبارك (رضى الله عنهما): أنت تأمرنا بالزهد ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، فكيف تأمرنا بشيء وتفعل خلافه؟. فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا على أنا أفعل هذا لأصون به وجهى، وأكرم به عرضى، وأستعين به على طاعة ربى... ولا أدرى لله حقّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به[1]!!

فالزهد أن تكون قادراً غنيّا ثم تزهد وتعطى... لا أن تكون خاملاً فقيراً تأكل من أوساخ الناس وصدقاتهم.

وكان الليث بن سعد فقيه مصر وعالمها الأكبر فى عصر هارون الرشيد، وكان مع ذلك من أثرى أثرياء عصره، وكان زاهداً كريمًا... ويروى أن الخليفة (هارون الرشيد) بعث إلى الإمام مالك بن أنس بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب الرشيد وقال له: كيف تعطيه أكثر منى وأنت من رعيتى؟ فقال له الليث: إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطى مثل هذا الإمام أقل من دخل يوم[2].

وقد ورد فى ترجمة الإمام أبى حنيفة النعمان أنه كان تاجر أقمشة مع شريك اسمه حفص فباع شريكه لأحد الزبائن ثوبًا فيه عيب، ولم يخبره بعيبه، ولم ينقص له الثمن، بل استوفى منه الثمن كاملاً، فلما علم أبو حنيفة بذلك، راح يبحث عن المشترى ويفتش عنه، وساعده شريكه فى البحث والتفتيش فلم يقفا له على أثر ولم يعثرا عليه، فعندئذ رفض أبو حنيفة أن يقبل ثمن الثوب ولم يضمه إلى ماله بل تصدق به كله، وفسخ الشركة مع شريكه احتياطًا لدينه.

وكان يونس بن عبد الجليل من كبار علماء العصر العباسى، وكان صاحب متجر لبيع الأقمشة والثياب، وقد رويت عنه قصص دالة على النهاية فى الورع، والروعة فى الإخلاص فى البيع والشراء[3].

---

(١) نقلاً عن: ناجى الطنطاوى: كلمات نافعة، ص: ٢٢١، دار المنارة، جدة، سنة ١٤٠٨هـ.
(٢) المرجع السابق، ص: ٢٢٩ بتصرف.
(٣) المرجع السابق، ص: ٢٤١، ٢٤٢.

وكان كثير من القضاة والفقهاء والمحتسبين ذوى شجاعة وتدرب على فنون القتال، وقد ذكرت كتب الرجال كثيراً من هؤلاء ؛ نورد منهم هنا (الفرج بن كنانة) ؛ أحد كبار القضاة فى قرطبة الذين قادوا الجيش وجاهدوا مع المجاهدين، وقاموا فى الوقت نفسه بدور اجتماعى كريم. ومنهم أيضًا الفقيه القاضى المعروف (أسد بن الفرات) فى تونس.

ويعتبر الإمام ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ)، والإمام أبو محمد على بن حزم (٤٥٦هـ)، والإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الكبرى والهمم العالية التى ندر وجود مثلها فى الحضارات فى عصور كانت تخلو من كثير من الوسائل المساعدة الحديثة. . . يعتبر هؤلاء ظاهرة تحتاج إلى رصد واستقصاء، ودراسة موضوعية لأسباب هذه العبقريات ـ كيفًا وكمًا ـ وأسباب هذا العطاء العملاق.

ويقول الطبرى عن نفسه : حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع. وقد قسم ما ألفه الطبرى أيام عمره منذ ولد فكان أربع عشرة ورقة كل يوم!! وكان ابن حزم ثانى مؤلفى الإسلام، وقد ألف أكثر من أربعمائة كتاب ورسالة.

وتقع فتاوى الإمام ابن تيمية فى أكثر من خمسة عشر ألف صفحة، ويقع كتابه (درء تعارض العقل والنقل) فى أكثر من عشر أجزاء فى الطبعة المحققة، بالإضافة إلى عشرات الكتب الأخرى التى تصل إلى آلاف الصفحات ؛ فضلاً على جهاده المعروف ومعاركه ضد البدع والأهواء.

وقد كان علو الهمة وقوة الإرادة، والعمل الدؤوب شاغلهم الأشغل.

والإمام ابن الجوزى يقول عن نفسه : نظرت إلى علو همتى فرأيتها عجبًا وذلك أننى أروم نيل كل العلوم، وأروم نهاية العمل بالعلم مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق، وأروم الغنى عن الخلق ؛ والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع نفس فى غير فائدة[1].

---

(١) المرجع السابق، ص : ٢٦٠.

إن هؤلاء - وآلافًا مؤلفة غيرهم - هم الذين صنعوا حضارتنا، وهم الذين يقدمون لنا أبرز ملامح الرؤية الإسلامية للتاريخ !! (وليس الساسة أو العسكر)!!

* * *

وفى نهاية هذا الشوط يجب أن نكون واضحين فى موقفنا من أنفسنا، ومن الآخرين . . فهل نحن مجرد شريحة من شرائح الجنس البشرى لا تتميز بشىء، وهمها الأكبر أن تصل إلى التقدم والرفاهية، وبالتالى يمكننا - إذا كان ذلك ممكنًا - أن نحطم كل شىء فى سبيل هذا الهدف العاجل والظرفى، أو أننا شريحة من الجنس البشرى تمثل (قلب) هذا العالم (وضميره) وأن مهمتنا فى التاريخ أن نضم (العقل) إلى القلب والضمير بحيث نقدم صياغة حضارية تأخذ بما هو (معقول)، ومنتوج عقلى بحت من كل الحضارات، وتضم ذلك إلى (قلبها) و (ضميرها) فى نسيج متكامل متناغم؟!!

إنه لا بد من توضيح موقفنا إذا شئنا أن نقدم رؤية علمية تنتمى إلينا وإلى حضارتنا فى تفسير التاريخ . . . فإذا آمنا بأننا مجرد شريحة من الجسم البشرى لا خصوصية لها فما علينا إلا أن نمضى وراء المدرسة التى تحمل أسماءنا . . . لكن قلبها وضميرها قد ضاعا منها، وأصبحت (كُلاً) أوروبيا لا يتجزأ، حتى وإن ظلت تزعم بأنها مسلمة وتحتفظ بأسمائها العربية أو الإسلامية، ونموذج محمد أركون وتلميذه أحمد عبد المعطى حجازى، وعزيز العظمة، وماجد فخرى، وسعيد العشماوى، وحسين أحمد أمين وأمثالهم تناضل فى هذا الطريق، وتحاول أن تقضى على الثوابت والخصوصيات ؛ بحيث تفقد الأمة فى معركة الحضارة كل سلاح تستلهمه من ثوابتها، ومن تراثها وحضارتها، وتركع سريعًا (لفقدانها جهاز المناعة) أمام الشرائح الحضارية الأخرى التى تكون - فى النهاية - الجسم البشرى !!

* * *